الاسم واللـــقب.**نصيرة بوطغان**
.**أستاذ مساعد ب. جامعة سطيف 2**

عـنـــوان المداخـــلة.**فلسفة العيش المشترك فى زمن العولمة**

المحور: أطر العيش المشترك والتفكير المشترك.

عنوان المداخلة : فلسفة العيش المشترك فى زمن العولمة.

ملخص المداخلة:

"تسعى هذه المداخلة إلى إعادة طرح سؤال علاقة الأنا بالآخر طرحا مغايرا عن المألوف،الذى درجت عليه أقلام الكتاب من الجهتين ، حيث كانت تعالج دائما في إطار صدام الحضارات و تصارعها عبر التاريخ، و كانت الصورة محددة في الغالب من قبل المتفوق حضاريا، الذي يلغي المغاير و المختلف عنه و لا يسمح للآخر بتقديم نفسه و التعريف بها كما يريد، و استمرت هذه الفلسفة إلى غاية اليوم أين تسعى الحضارة الغربية إلى تنميط البشرية بعولمة الثقافة و السياسة و الاقتصاد و جميع مظاهر حياة الإنسان، و كل محاولات التقريب بين الشعوب كانت مدفوعة بأيديولوجية ما كما هو الشأن فى الدراسات الإستشراقية، وفى الغالب هى إيديولوجية الثقافة الغالبة لهذا أردنا عبر هذه الدراسة التأسيس لسؤال المثاقفة بدل سؤال الأنطولوجيا كما أرادها القديس أوغسطين سابقا في فلسفة الإعتراف و دعى إليها كل من بول ريكور و إيمانويل ليفناس في الغرب و حسن حنفي في الفكر العربي المعاصر من خلال مقولة الاستغراب، المستقبل مرهون بفلسفة الإعتراف المتبادل."

مقدمة:

إن التعايش فى ظل الإختلاف هو أحد مواضيع الساعة التي تفرض نفسها على المجتمعات بإلحاح وتفرض التفكير فيه، والبحث فى قضاياه، وإحتواء ما يطرحه من مشاكل، وإنتقاء ما يجب أن يرصد له من حلول.

فإذا كان التقارب بين الشعوب هو الوسيلة الوحيدة لبقائها وإستمرار حياتها، فإن هذا التقارب في عصر المجتمع المعولم لم يعد غاية لذاته، وإنما وسيلة لتحقيق الحاجة الطبيعية أو تلبية الرغبة والطموح الغير محدودين كما يقول بذلك فلاسفة العقد الإجتماعى فى حديثهم عن الحالة الأولى ، حالة الحقوق الطبيعية ، والمساواة الكاملة فتمسك الشعوب بمبدأ البقاء للأقوى ضرورة حتمية لاستمرارها في الحياة و ليكتب لها الوجود و التطور الاقتصادي و الاجتماعي والعلمي و الفني و الثقافي والسياسي ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، ينظر أصحاب النظرة التفاؤلية إلى التعاون بين الشعوب بأنه أساس الاستقرار و الاستمرار، ولا نقصد بالتعاون في مجال الاقتصاد وإنما فى مختلف النواحي: علمية تقنية فنية روحانية ثقافية، وهذا ما طرح فكرة زوال سيادة الدول، بل الشعور اليقيني بأن عالم اليوم عالم يجب أن تختفي فيه الحدود لتتعايش الشعوب، وعالم العولمة اليوم يكاد يؤكد هذه المقولات، لأنه عالم أفرزته ظروف متسارعة ثقافية و تكنولوجية، قد مست رياحها جميع مجالات الحياة وإن صح التعبير أصبحت فلسفة في الحياة البشرية حتى تعدت المجال الإقتصادي و السياسي إلى الحياة الثقافية و الخصوصية والهوية، فهي سياسة الاحتواء، احتوت جميع الأقاليم والعالم العربي لا يشذ عن هذه القاعدة ،فهل يمكن والحالة هذه الحديث عن فضاء للتعايش الثقافي والعيش المشترك فى ظل هذا الإختلاف والتعدد ؟.

وإذا كان هذا التعايش ممكن ، فتحت أي شروط يمكن تحقق ذلك ؟

العولمة والتنوع الثقافى:

العولمة إذن كما يعلم الجميع ظاهرة قديمة ~~جديدة~~، أضحت حديث الساعة وتحولت إلى الإيديولوجية الكونية التى تسير كل المجالات ولكن لا تحمل في طياتها معنى العدالة ، إذ لا توجد عدالة في التحضر ولا في درجة التمدن، وهو ما يؤكده عبد المنعم الحفنى بقوله :" في العولمة تم رسم العالم تم السيطرة عليه في ظل هيمنة دول المركز وسيادة نظام العالم الواحد وبذلك تتهافت الدول القومية و تضعف فكرة السيادة الوطنية، و تسيطر ثقافة عالمية، تبدوا أمريكية"[1]و هي جعل الشيء على مستوى عالمي، أي نقله من حيز المحدودية الى آفاق غير محدودة، حيث يتم تعميم نمط من الأنماط الفكرية والسياسية والاقتصادية التي تختص بها جماعة معينة على العالم كله، ويعني ذلك ضرورة تجاوز الحدود القومية[2] هذا ما دفع بمحسن الخضيري الى طرح ثلاث تصورات للظاهرة وهي[3]:

1- العولمة كإيدولوجيا GLOBALISSM و تعني طرح مذهبي يقوم أساسا على فكرة تفوق الحضارة الغربية القادرة على تقديم النموذج الامثل للبشرية.

2- العولمة ظاهر إجرائية GLOBALISATION و تعني مجموعة من الاجراءات و الممارسات و المنهجيات الصادرة عن القوى الكبرى قوى المركز و ردود الافعال المضادة لها.

3- العولمة العملية: GLOBALITY وتعني مرحلة تاريخية تعبر عن تطور نوعي متميز و مختلف في تاريخ الانسانية، انها نتيجة طبيعية لتراكم الابداع الانساني.

وهذا يعنى أن العولمة بدل أن تجعل من التنوع الثقافى ، هدفا من أجل خلق عالم بدون حدود ثقافية ، أى لا محدودية الثقافة ، ولا ثقافة تعلوا على أخرى ، إنما لكل ثقافة نسقها الخاص التى تتحرك فى إطاره ، جعلت غايتها النهائية هى خلق ثقافة عالمية واحدة ، ، وهذا الهدف لا يمكن له ان يكون ممكنا ، ولم يتحقق بعد، ولا يتوقع له أن يتحقق قريبا .لأن البشرية انتقلت اليوم الى مرحلة خطيرة فمن فشل حوار الحضارات الى صراع الأديان والصراع حول الحقيقة المطلقة و سيستمر الصراع فى في ظل وجود الرغبة والنية من الثقافة الأقوى التى تتوجه إلى الاقصاء المتعمد .

إذن بدل طرح مسألة التنوع الثقافى كعائق أمام خلق مجتمع كونى ، لابد من تعويض ذلك بمصطلح التفاعل الثقافى ، لأن مفهوم التفاعل يحيل إلى تصور أكثر إيجابية من مفهوم التنوع الذى يمكن اتخاذه كذريعة من أجل تأجيج الصراع ،أو فرض شكل من أشكال الهيمنة ، وهذا الذى درجت عليه الحضارات سابقا ، حيث تفاعلت الحضارة الإسلامية الناشئة مع الموروث الهيلينى والهندى والفارسى ،باحترام وتقدير كبيرين.

وهذا يحيلنا إلى تصور آخر وهو تحويل الاختلاف الثقافي بين الثقافات ، إلى ثقافة في الاختلاف. و لبلوغ ذلك نحتاج إلى الوعي بفلسفة الاختلاف.ومعرفة محدداتها وتجلياتها وكذا آثارها . لتتأصل ثقافة الاختلاف وفلسفته كقيمة عالمية ثم تترجم إجرائيا في واقع الناس إلى ثقافة سلوكية شعبية ليتحقق السلام العالمي وتسود شراكة الكينونة بين سكان الأرض . في زمن القرية العالمية الواحدة أو في زمن الغرفة العالمية الواحدة،التي تقلص فيها العالم وانكمشت المسافات وتكاثفت عمليات التواصل والتبادل على المستوى النفسي والأخلاقي،وأصبحت الأرض أكثر صغراً" على حد تشخيص ليفي ستراوس.

على أن الاختلاف الذى نريد أن نجعل من فلسفة للتثاقف،* ليس ذلك الذى يروم إلى القضاء على التفرد والخصوصية وانصهار أو تماهى الأنا فى الآخر ، كما تدعوا إلى ذلك الفلسفات الإقصائية وإنّما الإختلاف الذى يصبح عن طريقه التفرد حالة معترف بها أمام شساعة التنوع . و"الوحدة التى يعرضها أمامنا الإختلاف كحركة لامتناهية للجمع والتفريق ، ليست هى وحدة الأضداد ، ذلك أن الحركة لا تتم هنا بين الكائن وضده ونقيضه وإنما تنخر الكائن ذاته"[4].

ومن هذا المنطلق فإن الحضارة العالمية لا يمكن أن توجد إلا كفكرة،من حيث أنها: "تحالف للثقافات التي تحتفظ كلّ واحدة منها بخصوصيتها".لذلك يدعونا " كلود لفي ستراوس"إلى التسامح مع الثقافات الأخرى وأن نتعلم تقبل اختلافات الإنسانية ذلك ما يسميه بالنسبية الثقافية، فليس هناك ثقافة لها الحق في النظر إلى ذاتها باعتبارها أرقى من الثقافات الأخرى،ولذلك يقول "كلود لفي ستراوس كذلك " :" إن البربري هو من يعتقد في وجود البربرية "

توجد معادلة تحكم طبيعة الثقافة ، فابن خلدون مثلا يتحدث عن وجود طبيعة إنسانية واحدة و في الوقت نفسه عن تنوع في الثقافات البشرية الغير محدودة فالثقافات في جوهرها كانت تعني قدرة الإنسان على التكيف بطريقة خلاقة مع البيئة التي يعيش فيها , وكانت تعنى كذلك علاقة الإنسان بالطبيعة بطريقة عكسية ، وبالتالي فالثقافة هي كل ما يبدعه أو ينتجه الإنسان بيده أو جسمه أو عقله أو هي الكل المركب الذي ينتجه الإنسان . وعلى العموم يعتبر مفهوم الثقافة مثار للجدل و الاختلاف فقد استخدمت وفق تنوع التخصصات و المجتمعات.[5] حسب " كلوك هون" الذي أحصى أكثر من 150 تعريفا للثقافة ، فقد جاء في احد الدراسات الاجتماعية مايلي :" يميل كل مجتمع إلى تشكيل كل ثقافي فريد ، يمكن للمجتمعات المتشابهة في درجة تطورها الاقتصادي من أن تكون مختلفة عن بعضها بقوة من الناحية الثقافية"[6] و بالنسبة للعولمة الثقافية تطرح تساؤلات عديدة بدءا من القول هل من الممكن أصلا الجمع بين مصطلحين العولمة، الثقافة بينما الثقافة تنبثق و تتطور في موقع معين ؟

عولمة الثقافة أم مركزية الثقافة:

تهتم فكرة عولمة الثقافة أو عالميتها ببروز ظاهرة المركزية الثقافية، و هي نظرة لا تخلوا من التعالي و العنصرية إن لم تصل أحيانا إلى درجة التفرقة العنصرية ، هناك ثقافة تجعل من نفسها مركزا وبقية الثقافات هوامش هذه الأخيرة تحاول أن تبلغ مستوى الثقافة الأولى من خلال التقليد ، ويندرج مفهوم عبئ الرجل الأبيض ضمن فكرة المركزية الثقافية[7].

فأغلب المفاهيم المتداولة اليوم في العولمة الثقافية و الفكرية المختلفة، تنطلق في جوهرها من محورية الغرب و عالميته لصهر ثقافة الشعوب البدائية القديمة في قوالب الفكر الغربي و بالتالي التضحية بخصوصياتها وأصالتها،[8] في حين نجد الجابري يقول:" بثقافة الاختراق بدل المركزية الثقافية , فثقافة الاختراق تقوم على جملة أوهام هدفها " التطبيع" مع الهيمنة وتكريس الاستتباع الحضاري"[9]. و يؤكد على أن الاختراق الثقافي محمل بالإيديولوجيات ، وهي إيديولوجيا الاختراق ، وهي تختلف عن الإيديولوجيات المتصارعة كالرأسمالية و الاشتراكية في كونها لا تقدم مشروعا للمستقبل ،

لا تقدم نفسها كخصم لبديل أخر و تقاومه ، وإنما تعمل على اختراق الرغبة في البديل وشل إرادة التغيير لدى الأفراد و الجماعات[10].

فى ظل هذا المشهد إذن ، يصبح لزاما على التيارات الثقافية العربية، أن تتتميز بالروح العقلانية النقدية والواقعية العلمية وتحاول أن تنتج ثقافة متعددة المناهج منفتحة على الثقافات الأخرى، وأن تستفيد من التحولات والتطورات التى تخضع لها الشعوب والدول والثقافات ، وتعدها روافد مهمة تتغذى منها الثقافة الأصل وتتعامل معها بشكل نقدي، وفي نفس الوقت لا تهمل التراث العربي فهي تخضعه لمحك النقد وتستفيد مما هو صالح للحياة والنمو والتطور ومن ثم تتجاوزه، وتصبح الأصالة من هذا المنظور ليست كنزاً ولا ركازاً، ليست معطى خاصاً ولا قطعة في متحف، بل الأصالة سمة تطبع كل عمل فيه خصوصية وإبداع، والخصوصية والإبداع ليسا وقفاً على فترة معينة.

لأن مقولة الثقافة المركزية ، أو الحضارة المركز ، ماهى إلا مقولة أريد بها خدمة أهداف محددة سلفاً، هي فى الغالب من أجل تمرير مشاريع الهيمنة والسيادة والتبعية ، وهو ما يثير قضايا وإشكالات فلسفية وأخلاقية ، تتعلق بالآلية التى يتم بموجبها بناء هذه الأيديولوجيات والترويج لها ، وتمهيد الشروط المناسبة للاختراق، ثم الهيمنة والإطباق .. نحن نشير هنا إلى الإيديولوجية الاستعمارية و الدراسات الإنسانية والإجتماعية التى تجرى على قدم وساق ، والتى من بين أهدافها الإعداد الذهنى والتكييف النفسى مع هكذا مقولات ،وغير ذلك من المناسبات الكثيرة التي يتم فيها توظيف الآلية الأيديولوجية المتمركزة على الذات الغربية، كذات فاعلة في التاريخ، بهدف ضمان استمرار فاعليتها بأكثر من وسيلة، ثم حماية مكتسباتها ومصالحها في المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية والأيديولوجية.

صراع الهويات :

لقد تفطن كثير من النخب العربية إلى مدى ثقل تلك الإشكالية المتعلقة بجدل العلاقة بين الأنا والآخر، إن صح التعبير ، فانبروا إلى ممارسة نوع من النقد على الذات العربية أو الأنا في علاقتها مع الآخر سواء كان هذا الآخر الموروث القديم أو الوافد الجديد، وهو الذى نبه إليه "حسن حنفي" حيث: "تشير الجهات الثلاث التى اشتغل عليها فى مشروعه الضخم "من التراث إلى التجديد" إلى جدل الأنا والآخر في واقع تاريخي محدد، فالجبهة الأولى "موقفنا من التراث القديم" تضع الأنا فى مواجهة تاريخها الماضي وموروثها الثقافي، والجبهة الثانية "موقفنا من التراث الغربي" تضع الأنا في مواجهة الآخر المعاصر، وهو الوافد الثقافي الغربي أساسا والجبهة الثالثة "موقفنا من الواقع (نظرية التفسير) فإنها تضع الأنا في خضم واقعها المباشر"[11].

وتتجلى أزمة الثقافة العربية حسب "حسن حنفي" في الضلع الثاني وهو الوافد الغربي الذي اخترق ثقافتنا دون مقاومة ثقافية واعية ودون استيعاب لايدويولوجيا الآخر ومنجزاته التقنية غير المتحيزة يقول حنفي: "إذ أصبحت علاقة الأنا بالآخر علاقة غير سوية، فالآخر يبدع والآخر ينتج والأنا تستهلك، وجيلا وراء جيل ينشأ عند الآخر مركب عظمة ويتكون عند الأنا مركب نقص."[12] يشير حنفي الى التفاوت الحضاري بين العالم العربي والعالم الغربي، فالعالم العربي خرج من التاريخ وأصبح في الهامش أما العالم الغربي فدخل التاريخ ليصبح هو المركز، هذه الصيرورة أدت الى اضطراب العلاقة بين العالمين وعبر " وقيدي" عن العلاقة بقوله:"فما حصل في تجربة النهضة العربية الحديثة هو حضور سلبي للآخر، كان سلبيا لأنه جرى ضمن سياق صدامي، لا يمكن من امتلاك الآخر بعد فحص نقدي له إنما صار النموذج الذي تفكر به النخب ... لذلك فلا غرو إن كان التصور المغلوط للذات شديد الارتباط بعائق ثان لا يقل على الأول خطورة وهو النابع من تصور مغلوط لذات الآخر وتاريخه"[13].

وكانت النتيجة أن تحولنا إلى موضوعات إلى أشياء قابلة للدراسة مقيدين غير أحرار، والذي يقيدنا حضور الآخر في ذواتنا باعتباره منتهى الحضارة وسوادها. إلى الدرجة التي صارت مهمة في الثقافة العربية الإسلامية.

ولن يتحقق الاستقلال التاريخي من الآخر إلا "بإعادة قراءة الذات قراءة نقدية وهو استقلال يعني من جهة التحرر من الفكر الأوروبي، واختياراته ليس بالتنكر له، بل بامتلاكه، ومن جهة ثانية الاستقلال الذي يفتح طريق الإبداع في المسائل الإعتقادية والأخلاقية مع المسائل الاجتماعية والسياسية"[14].هذا يعني أن مطلب تحقيق الهوية المستقلة ومواجهة الآخر لا يكون بالاكتفاء بالموقف الدفاعي فحسب الذي يعبر عن ضعف الأنا بل لمواجهة الآخر في عقر داره وقراءته.

إن إشكالية الآخر (l'autrui) ليست فرضية للبحث الفلسفي فقط ولا يمكنها أن تكون حقلا معينا للدراسات الإنسانية فحسب بل إن الآخر هو قبل كل شيء واقع أنطولوجي مفروض على الإنسان. فكل من يقول "أنا" يقول "الآخر" أي كل من يختلف عن هذه "الأنا" يعتبر آخر فالآخر ماهو "إلا أنا" لهذا نجد صورة "الآخر" تخترق كل تاريخ الفكر البشري منذ ظهوره، مهما كانت طبيعة هذا الفكر، أسطورية أو دينية أو فلسفية.*

وإذا كانت صورة الآخر في الفكر الغربي، أو في الفلسفة الغربية قد اكتمل إطارها مع أساتذة الشك الثلاثة "ماركس"karl marx(1818-1883) و "نيتشه"Fridrich Nietzsche(1844-1900) و "فرويد" Sigmund

Freud(1856–1939) الذين فككوا هذه الصورة التي كونها الغرب عن نفسه وعن الآخر، وكشفوا النزعة الإمبريالية التي تخترق الوعي واللاوعي الأوربيين، فإنها لم تكتمل بعد في الفكر العربي.

ولهذا نجد هذا الثلاثي شكل إحدى المرجعيات الفلسفية لحركة "ما بعد الحداثة"Post Moderne ونعني الجيل "النيتشوي" و "الهيدغري" من الفلاسفة الذين ظهروا بعد الحرب العالمية الثانية بخطاب فلسفي جديد، خطاب ثوري مناهض لكل مركزية غربية تحاول اختزال التاريخ العالمي إلى تاريخ الغرب، لذلك حاول بعض المفكرين من أمثال "ميشال فوكو" و"جاك دريدا"Jacques Derrida(1930) تفكيك مقولة الغرب نفسها للكشف عن أنها تقوم على زعم مفاده أن هناك تواصل أنطولوجي وتاريخي خفي بين المعجزة "الأثينية" في اليونان وبين النهضة الأوربية الحديثة، ولهذا كذلك وصل "فوكو" بأبحاثه إلى أنه لا وجود لمثل هذا التقدم والتواصل لكن كل ما هنالك هو خطاب إيديولوجي حول التقدم والتواصل، أما التاريخ فهو تاريخ القطائع والإنفصالات التاريخية والانهيارات الهائلة التي تجرع العرب مرارتها، مع تجارب المرض والجنون والجنس والطاعون[15].

ووعيا منا بأن إشكالية الأنا والآخر التى اخترقت الوعي العربي المعاصر، اليوم أكثر من ذي قبل، ويتجسد ذلك في كتابات نخبنا باختلاف مشاربها الإيدوليوجية ومنطلقاتها المعرفية والمنهجية، فإن الأوضاع العالمية اليوم تفرض العودة إلى هذه المسألة وذلك بالنظر إلى السجال حول صورة الآخر كنوع من الصراع لإثبات الذات.

والمفارقة التى تستدعى الإنتباه اليوم ، أننا فى الوقت الذى انفتح فيه العالم على مصراعيه وعلى مستوى كل الجبهات ، فى إطار العولمة والقرية الكونية ، وتصاعد مد الإعلام والإتصال والتواصل ، تم الترويج لمفاهيم إيجابية ، تبنتها عديد من الدول والمنظمات من مثل : الوحدة فى إطار التعدد التعايش فى ظل الإختلاف التسامح ، حوار الأديان ، احترام الأقليات .... " فخلال السنوات الأخيرة تبنى عدد كبير من البرامج والوكالات فى الأمم المتحدة ومؤسسات بريتن وودز الحجج التى طورتها اليونسكو فى فى تفكيرها حول التنوع الثقافى ، فمثلا البنك الدولى اتبع فى مناسبات عدة فى دراساته عن الصلة بين الثقافة والتنمية الخط الذى انتهجته اليونسكو (1988–1997) وفى وقت لاحق عمد الفريق الرفيع المستوى المعنى بتحالف الحضارات إلى تسليط الأضواء بصورة منقطعة النظير على المبادرات التى تروج للحوار بين الشعوب والثقافات"،[16] كما تم كذلك تفنيد وإبطال مقولة المفاضلة بين الأجناس واللغات ، نجد فى المقابل تصاعد لافت لموجة العنف والتطرف الدينى والفكرى والتعصب للثقافة والفكرة والتوجه ، كما تعاظم الصراع بين الثقافات والشعوب ووصل لحد الصدام فى كثير من الحالات ، حتى أضحى هذا العصر كما وصفه صموئيل هنتغتون :" الصراع فى العالم الجديد لن يكون إيديولوجيا أو اقتصاديا ، بل سيكون ثقافيا أو حضاريا بالمعنى الأدق"[17] . مما

يجعل المفاهيم السابقة والتى يتم الترويج لها بلا ملل ذرا للرماد فى العيون ، وإخفاء لإيديولوجية مضمرة خدمة لأهداف معينة ، قد تكون إقتصادية أو سياسية أو عسكرية .

ولكن واقع الحال هذا ينبهنا إلى حقيقة أخرى هى التى ينبغى التركيز عليها قبل الحديث عن مسألة الحوار بين الشرق والغرب ، أو حوار الحضارات والثقافات ، وهي فى رأيى : أنه لايمكن تكريس ثقافة العيش المشترك فى إطاراختلال ميزان القوى ، وللتوضيح أكثر المفاهيم والشعارات التى يحاول العالم المتمدن والمتقدم تسويقها والترويج لها لن تكون بين عالم أول وعالم ثالث وإن حاولت الظهور بمظهر إنسانى وأخلاقى وحضارى ، بل ستكون بين عالمين متكافئين يفرض كليهما احترام الآخر بالقوة ، ليس قوة السلاح وإنما قوة الموقع . وهنا لا أجد أأنسب من عبارة نيتشه لوصف الحالة وهي : "الشيء الوحيد الذى لا يغتفر لك ، هو أن تكون ضعيفا "، " وتقوم إحدى الإعتراضات الرئيسية على نظرية صموئيل هنتغتون حول "الصدام بين الحضارات "على كونها تفترض مسبقا وجود انتماء وحيد وليس انتماءات متعددة بين المجتمعات البشرية ، ولا تراعى الترابط التكافلى والتفاعلى الثقافى فيما بينها "[18].

وعلى ضوء ما تقدم يمكن القول إن أهم معوقات التأسيس لثقافة العيش المشترك والعمل وفق القيم المفتوحة والمستوعبة للتطلعات الإنسانية، والمتجاوزة للأطر العرقية والأيديولوجية واللغوية، هو تلك الصورة المرعبة التى شكلتها الحروب التاريخية الطويلة ، والصدامات المتكررة بين الشرق والغرب، ولهذا تلعب الذاكرة دائما دورا مهما فى رسم حالة من الخوف والترقب اتجاه الآخر في إطار لم يستطع الطرفان فيه التخلص من الموروث الماضوى الثقيل , لأنه رسخ في الذاكرة وتناقلته الأجيال في صورة تعكس ما في جعبة الباطن من كراهية للآخر حينا ، وخوفا حينا آخر.

ولهذا يصبح لزاما علينا ونحن بصدد تعاملنا مع إشكالية العلاقة بين الشرق والغرب ، أو استشرافنا لسبل التثاقف والتعايش المشترك .لا يمكننا القفز على حركة التاريخ فى تحليل وتفكيك الصورة الراهنية التى نشهدها لأن هذه الإشكالية لم تكن يوما محكومة بضوابط محددة تصلح لكل زمان ومكان، بل هي تشكلت وتبلورت ضمن مسار تاريخى طويل ، مما يؤكد عدم ثباتها عند نقاط محددة وبالتالى لايمكن التحكم فيها بمجرد الشعارات والكتابات والمؤتمرات ، ولاحتى بتلك المبادرات السياسية التى تظهر من حين لآخر. وبالطبع هذا لا يلغي نقاط الوصل التي تخللت موضوع اللقاء الحضاري بين الشرق والغرب في فترات معينة ، فثمة جسور مقامة في حلقات التاريخ تكشف جوانب هذا اللقاء ، الذى لم يكن في صورة عنيفة ، وإنما كان تحت ما يسمى التلاقح الفكرى ، ونتحدث هنا عن اللقاء الحضارى بين الموروث الهيلينى والحضارة الإسلامية الناشئة ، رغم ما تخلله من محاولات للإجهاض من طرف التيار المتشدد .

ولكن رغم ذلك فالطابع العام الذى كان يغلب على هذه الصورة ، هو طابع الصراع والصدام . الذى تعتبر الحروب الصليبية ، أقسى صوره وأكثرها تأثيرا ، وقبل الحروب الصليبية تعتبر الفتوحات الإسلامية من طرف الآخر حروب صليبية من قبل الأنا خاصة وأنها كانت ذات صبغة دينية . ثم توالت الأحداث فكانت الصدمة الحضارية مع حملة نابليون التى هزت صورة الشرق الحضارى و أحدثت خللخة عميقة على مستوى الوعى العربى الذى كان مسكونا بتفخيم وتضخيم الأنا . فالحربين العالميتين الأولى والثانية والأثر البالغ الذى كان لهما في تحريك الأحداث ليس فقط في البلاد العربية وإنما فى العالم ككل ، تخللتها عدة انكسارات متتابعة منيت بها الذات العربية عام 1948 ،و عام 1967 ،وما تلاها من أحداث كالحرب بين العراق وإيران 1988 – 1980)امتداداً لحرب الخليج الأولى والثانية ، ولا نغفل هنا أحداث مطلع هذا القرن _الحادي والعشرين – من ضرب برجي التجارة في أمريكا وسقوط العراق واحتلاله في عام 2003 ، هذه الأحداث لا شك أنها أنها غيرت الكثير من المفاهيم والرؤى والحسابات وأعادت ماتم ترميمه من تصدعات بين الشرق والغرب إلى زمن الحروب الصليبية ، وهو ما تؤكده الهجمة الشرسة التي شُنّت وتشن على الشرق العربي والإسلامي، وبروز الصورة السلبية للإسلام وهي صورة الإرهاب التى أعطت تبريراً قويا لمحاربته ومحاولة استئصاله من جذوره .

خاتمة :

على ضوء ماسبق يصبح الإنشغال الأبرز : ماموقعنا نحن من الحضارة ومن العلم ومن التقدّم التقني ومن ميزان القوى فى العالم والعلاقات بين البشر؟ الحضارة والمدنية ليست أكثر من قناع براق ، و وراء هذا القناع(قناع التمدن والتحضر) يختفي غول التدمير وغريزة السيطرة المرعبة، وهذا الإنسان الذى يعتبر نفسه اليوم "متحضرا" لم يتقدّم كثيرا من الناحية النفسية عن أجداده البدائيين و لا يزال على استعداد تام لأن يجرم فى حق الآخر من أجل تحقيق رغباته ومصالحه ، و تقدّمه الوحيد الأكثر بروزا هو في تطوير آلات القتل لتقتل أكثر وبشكل أعنف وأوحش؟

إن النتائج التى انتهى إليها داروين والتى أثارت استنكار واشمئزار الكثيرين ، ونتحدث عن المصطلح الأبرز فى نظريته وهو : الانتخاب الطبيعى والبقاء للأصلح ، نراه يتناسب مع ميدان الحضارات والثقافات أكثر من أي ميدان آخر ، بحيث تحول العالم إلى امتحان لانتقاء الثقافة الأقوى والإيديولوجية الأكثر تأثيرا ، وإن لم تنتصر الثقافة الواحدة فى معركة الصراع من أجل البقاء لابد أن تستأصل ، أو تتحول من مفترسة إلى فريسة . هذا الذي رصدناه من خلال تتبع إشكالية العولمة والتنوع الثقافى ،وصراع الأديان والحضارات .

ولذلك فالشعوب المستضعفة أمام تحدى كبير لاسبيل للقفز عليه وهو أن عليها أن تستخرج حضارة إنسانية جديدة لتجعل منها إضافة حضارية متعددة معاصرة، عدا ذلك عليها أن تختزل حضارتها فى حدود الثقافة المغلوبة أمام حضارة عالمية غازية شاملة تمتلك كل امكانيات التفوق.

الهوامش:

[1]– عبد المنعم حنفي : المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة ، مكتبة مدبولي ، القاهر ،ط3 ،2000،ص 568

[2]– المعجم نفسه : ص 569

[3]- محمد حسين ابو العلا: ديكتاتورية العولمة، مكتبة مدبولي القاهرة، ط1، 2004.، ص34

[*]– التثاقف مصطلح ابتدعته أقلام الأنتربولوجيين الأمركيين في حدود 1880. وكان الإنجليز يستعملون بدلا عنه مصطلح التبادل الثقافي (Cultural exchange)، في حين آثر الإسبان مصطلح التحول الثقافي (Transculturation) وفضل الفرنسيون مفهوم تداخل الحضارات (civilisations Interpénétration des)، إلا أن مصطلح المثاقفة أصبح أكثر تداولا وانتشار.ويحاول هذا المفهوم أن يختزل واقع تعايش وتلاقح ثقافات مختلفة، وقد إهتم المؤرخون بمظاهر التقاء الحضارات في إطارها الدينامي والمتحرك. وبرزت الأبحاث الرائدة في هذا المجال بأمريكا، إذ نتج عن الإكتشافات الجغرافية وإستقرار الأوروبيين بهذه القارة التي ظلت ولقرون طويلة بمنأى عن تأثير ثقافة وحضارة العالم القديم وضعية فريدة من نوعها، فأصبحنا بالتالي أمام ثقافة أوروبية ترى لنفسها السبق، وثقافات أخرى كالثقافة الهندية المحلية والثقافة الإفريقية التي حملها العبيد السود. ويشير المصطلح إلى مجمل الظواهر الناتجة عن إتصال مباشر بين جماعات وأفرا د ذات ثقافات مختلفة مع تغيرات لاحقة في أنماط الثقافة بين الأولى والثانية أي من التجمعات إلى الأخرى.

Roger Bastide" ,Acculturation", in Encyclopedia Universalis, paris1995 p.114.

[4]– عبد السلام بنعبد العالى ، الفلسفة فنا للعيش ، دار توبقال للنشر ،ط1 ،2012 ص 124

[5]– كلو كهون وكروبير: الطبيعة والثقافة , ترجمة محمد سبيلا , دار توبقال , المغرب , 1991, ص 13.

[6]– ريودون وفبوريكو: المعجم النقدي لعلم الاجتماع , ترجمة سليم حداد , المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر , بيروت 1986, ص288

[7]– زكي يونس الفاروق : تقديم لكتاب نظرية الثقافة , سلسلة عالم المعرفة , الكويت , ع 288, 1997, ص 07.

[8]– محمد محفوظ : الإسلام والعرب وحوار المستقبل , مرجع سابق , ص119.

[9]– محمد عابد الجابري: العولمة و الهوية الثقافية العرب و العولمة , مرجع سابق , ص302.

[10]– المرجع نفسه ,ص303.

[11] - حسن حنفي، **مقدمة في علم الاستغراب**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2، 2000

[12]– حسن حنفي: الدين والثقافة والسياسة في الوطن العربي، المكتبة المصري للمطبوعات، 2009، ص60.

[13]– محمد أوقيدي: أحميدة النيفر: لماذا أخفقت النهضة العربية، دار الفكر، دمشق ، ص56.

[14]– المرجع نفسه: ص56.

[*]– ففي الميثولوجيا الاغريقية نجد اسطورة (رمسيس)، (رمسيس هو بطل الاسطورة اليونانية الشهيرة بجماله ووسامته)، تكشف لنا أن الآخر هو الصورة التي تبحث فيها "الأنا" عن نفسها. ليس فقط كموضوع عشق وهيام، بل كذلك كمعلم ""للأنا" من أجل بناء ذاتها وإعادة الثقة بها، إن الآخر يمثل دوما هاجسا "الأنا" فهو المختلف الذي تسعى نحوه للإستحواذ عليه ونفيه، فالآخر هو الطرف المركزي في لعبة المرايا التي استهوت رمسيس إلى أن أودت به، فالآخر غدى بقدر ما يكون موضوع بحث، يؤول اصلا للسقوط، فحتى وإن كانت الأنا هي الأصل ونقطة بدأ الفكر بإعتبارها "الأنا" المفكرة، كما يقول ديكارت1596–1650) René Descartes " نجد أن الآخر يقف دائما أمام هذه الأنا، ويتعرض حريتها ... فالأنا تلقى بأضوائها على (الفكر) على الآخر وفي اعتراض الآخر على هذه الأضواء تنشا الضلال الخفية للمعرفة" أنظر:

Martin Heidegger, l'etre et le néant traduit d'allemand par A de wachlhens et R. Boche. Ed Gallimard, Paris, France, 1964, P71, 72.

[15]– مشال فوكو: الكلمات والأشياء، ترجمة مطاع الصفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1998،ص66.

[16]– **تقرير اليونسكو العالمى ، الإستثمار فى التنوع الثقافى وفى الحوار بين الثقافات ص5–6**

[17]– صموئيل هنتغتون ، صدام الحضارات ، الحوار المتمدن ، العدد 2879 –2010 ص21

[18]– تقرير اليونسكو العالمى ، الإستثمار فى التنوع الثقافى والحوار بين الثقافات ، ص65.